



نتائس

**مجلة أكاديمية سنوية
لمنظمة معلمي الدراسات العربية
والإسلامية بنيجيريا**

طبع بمطبعة شباوتيما
شارع أررومي، رقم: ٧٢
إيجو أودي، نيجيريا

إعادة النظر في عوامل انحطاط الأدب العربي في العصر التركي

بقلم

عبد اللطيف أونيرتي إبراهيم

مقدمة

يعيب النقاد أدباء العصر التركي - الذي يشتمل العصرين المملوكي والعثماني بالاهتملم بالمزينات اللفظية على حساب المعاني الجيدة المألوفة في الأدب العربي القديم والحديث، وبعدم الابتكار في العلوم، ولأجل هذا وذاك وغيرهما من الأسباب سمي العصر "بعصر الانحطاط" أو بعصر الانحدار" أو عصر الجمود" ولكن مما أخلده لنا التاريخ من إنجازات جلييلة لأدباء هذا العصر، أمثال ابن خلدون صاحب المقدمة والقلقشندي صاحب صبح الأعشى وبوصيري صاحب البردة وابن الوردي صاحب اللامية وغيرهم، يجعل الباحث المدقق حائرا في صحة نسبة الانحطاط والجمود إلى هذا العصر.

لذلك يري هذا البحث ضرورة إعادة النظر في القضية ليكشف اللثام عن الحقيقة الكاملة فيها، والتي تنافي الريب والشكوك.

ولتحقيق هذا الهدف، تكلمنا عن بداية العصر وتحديدته والحياة العامة فيه، ثم قمنا بالمقارنة بين عوامل الانحطاط، كما ذكرها العلماء، والإنجازات التي خلدها لنا هذا العصر قبل إصدار الحكم.

قيام العصر التركي وتحديدته:

اعتمد الخلفاء العباسيون علي الموالى فالأثراك في تدبير نظام دولتهم ودويلاتهم فنتج عن ذلك إضعاف سلطة الخليفة ^{التاريخ} بالتاريخ وزوالها في النهاية باستيلاء المغول بقيادة هو لأكو على بغداد عام ١٢٥٨/٦٥٧^(١) وقضائهم على أهم معالم الحضارة فيها. فانقلب الحكم العربي إلى الحكم التركي حيث قامت دولة العباسية التي آخرها الأيوبيين، وذلك بعد انتصارهم على الصليبيين،

الذين حاربوا العرب في القرن الخامس الهجري واستعمروا بعض أراضيهم مثل إمارة الرها في الجزيرة الفراتية شمال العراق وسوريا وإمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس، كما انتصروا (الممالك) على التتار في معركة عين جالوت سنة ٦٥٩^(٢). وأول من وضع أساس سلطة الممالك باتفاق المؤرخين امرأة مسمسة بشرة الدر، وكان زوجها أليك أول سلاطينهم^(٣).

انتهى العصر المملوكي في سنة ٩٩٣هـ/١٥١٦م وقامت الدولة العثمانية بقيادة سليم الفاتح العثماني الذي سقطت الشام بيده ثم مضر والحجاز وينتهي هذه الدولة بدخول نابليون بونابرت مصر سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م^(٤).

وبهذا يتضمن العصر الذي نحن في صده عصرين: العصر المملوكي والعصر العثماني.

الحالة الاجتماعية في العصر:

فالحالة الاجتماعية لعامة الناس في هذا العصر كما وصفها حنا الفاخوري تنطوي على ضنك وقلق من أثر غزوات المغول التي كانت لا تبق ولا تذر وظلم الممالك والأتراك قد تقل كاهل الشعب بالضرائب، وكتبهم بالاستبداد، فتجاذب الناس في هذا العهد القاسي نزعان هما: "نزهة أباحية ونزعة زهدية" فمرارة العيش التي أحسا جعلت بعضهم مالوا إلى المخدرات والمسرات ولذائد الدنيا ولم يتورعوا بما بل يكتبون عنها غير خجلين. وانصرف بعضهم إلى أمور الدين يزهدون في الدنيا فكثرت مدارس الصوفية والتجأ الشعراء إلى المدائح النبوية واستشفعوا بالأولياء^(٥).

أما الدرجة الحاكمة، فاشتغلوا بأنواع الملهي والملاعب التي تناسيهم كرجال حرب، كاجراء الجبول في حلبات السباق واللعب بالكرة والصلجان والتبارى بالألعاب الفرنسية ورمي النشاب وكثيرا ما يخرجون للصيد في البراري والصحراء وحول البحيرات ويصاحبهم الخدام والأعوام. كما يتمتعون بأنواع الترف وإحياء ليالي الموسيقى والغناء التي بذلك أدخلوا آلات جديدة مستعملة في بلادهم في الموسيقى العربية ويتغنى بها المغنون بمنظوم الشعر، والموشحات، والفجل والموالي^(٦). أثر هذه الأوضاع في أدب العصر تأثيرا بليغا وأوحت إلى شعراء قول الشعر وتفنن فيه كما نبهت أشواق الكتاب وغرا منهم إلى استرجاع ما أتلفه التتار والحروب المتداولة.

الحياة الفكرية:

في هذا العصر كانت مصر والشام مركزين مهمين للحركة الفكرية. وأوفد إليهما العلماء والأدباء من أنحاء البلدان الإسلامية، جذبهم إليهما حب حكام الممالك والعثمانيين للعلم والعلماء وإغداقهم إياهم بالمال والعطاء وجذبهم إليهما كذلك كثرة المدارس ودور العلم والمكتبات العامرة بالكتب النادرة^(٧).

وكذلك قامت مكة والمدينة بدور ملموس في الحياة الدينية والثقافة، لأن زيارة البيت لأداء فريضة الحج سنحت فرصة بقاء بعض أعلام العصر زمنًا مجاورًا بالحرم المكي أو المسجد النبوي حيث التقى بجماعة من الأعيان حاجين أو فضوا إليها كذلك حاجين فيتبادلون الآراء والمعارف. ومن هؤلاء الزمخشري والعسقلاني والسيوطي وغيرهم.

وكذلك قام بعض العلماء برحلات علمية يطوفون بلدان العالم، وعليه يقول بعضهم: وكانت رحلة العلماء من العالم العربي الإسلامي تتم في دورات، بعضها يأتي من المشرق وإلى الحجاز والقاهرة أو دمشق، وبعضهم من المغرب والأندلس إلى الإسكندرية والقاهرة فمكة والمدينة ببغداد فدمشق. وكانوا في طوافهم ذاك يلتقون في كل بلد يحلون به بالعلماء والطلاب كالنحل ينقل الرحيق ويتزود من كل زهرة بما يطيب له من شراب متعدد المذاق^(٨).

ونتيجة لهذه العوامل جميعًا نشط العلم بفروعه وأصوله وخاصة العلوم الإسلامية والثقافة العربية ونشط كذلك حركات أدبية لا يستعان بها في هذا العصر.

عوامل الانحطاط:

تشتمل العوامل التي أدت إلى انحطاط الأدب في العصر التركي كما ذكرها العلماء فيما

يلي:

١- عدم كثرة العمل الأدبي بسبب تدمير المغوليين الانتاجات الأدبية النفسية وقضائهم على العلماء والأدباء.

٢- عدم تشجيع الملوك الأعاجم للعلماء والأدباء على قول الشعر كما كان الأمر في العصر السالفة.

٣- انقطاع التكسب بالشعر الذي يعطي الحيوية للحركات الأدبية في العصور الغابرة.

٤- امتزاج اللغة الأجنبية باللغة العربية الفصحى مثل اللغة الفارسية والتركية والكردية^(٩).

٥- كثرة استعمال اللغة العامية دون الفصحى في أعالي الجزيرة وشرقي العراق في التخاطب.

٦- اقتصار الخطابة على خطب الجمع والأعياد، وتلاوة بعض المرسومات والمنشورات. وأحيانا يقارن الخطب المنبرية مع الترجمة إلى الأعجمية^(١٠).

٧- ضعف الشعر وشأن الشعراء على الاعتبار الآتية:

(أ) ميل الشعراء إلى الاعتناء بالصناعة اللفظية (البديعيات) والتلاعب بالألفاظ على حساب المعاني الجيدة مما أدى إلى تسمية الشعر في هذا العصر "شعر الألفاظ والزينة" ومنشأ هذه البديعيات - كما قال صاحب المفصل - بردة البوصيري لأن الشعراء يحاولون معارضته وتفوقه بإظهار براعتهم في البديع، ولكنهم في الحق لم يفوقوه إلى الإجابة فجاءت هذه البديعيات صوراً مشوهة من التكلف الممقوت فمن أمثلة هذه البديعيات قول الشاعر الذي جانس بين قوا في أبياته جناساً تاماً:-

قف بالحمي ودع الرسائل ** وعن الأحبة قف وسائل

واجعل خضوعك والتذلل ** في طلابهم وسائل

والدمع من فرط البكا ** علبهم جوار وسائل

وأسأل مراجعهم فيها ** ن لكل محرم وسائل

(ب) الولوع بالتورية:- كانت التورية، وحسن استعمالها، دليل نبوغ الشاعر وعبقريته في هذا

العصر، وكانوا يتباهون بذلك وعليه يقول ابن حجة الجموي:

ولهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سمو إلى أفق التورية

واطلعوا شمسها، ومزجوا بها الذوق السليم لما أداروا كؤوسها^(١٢).

ومن أشهر شعراء التورية بمصر في هذا العهد سراج الدين الوراق المتوفى سنة ٦٩٥ هـ الذي قال:

أطبوا في عرفات وغدوا ** ليتعاطون له حسن الصفات
ثم قالوا لي هل وافقتنا ** قلت: عندي وقفة في عرفات^(١٣)
(ج) كثرة التشطير والتخميس والاقتباس والتضمين.

كانت للشعراء في هذه الآونة براعة فائقة في تغيير المراد من الشعر المأخوذ مع حسن السبك، ودقة الصناعة. كما تجاوزوا في بعض الأحيان في ذلك إلى حد السخف. وعليه قال مجير الدين بن تميم وهو من كبار الشعراء المضمين.

أطالع كل ديوان أراه ** ولم أزجر عن تضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معني ** فشعري نصفه من شعر غيري^(١٤)
(د) نظم الألفاظ والأحاجي:-

لإظهار البراعة والحدافة أستكثر الشعراء في هذا العصر من نظم الأشعار بالألفاظ المصغرة والمعجمة والمهملة، والتزموا مالا يلزم، وأتوا بما لا يستحيل بالانعكاس وبالغوا في التاريخ الشعري، يقول صفى الدين الحلبي مستعملا الأسماء المصغرة:

لحيطك والمقيلة مع نظمي ** سحير في سحير في سحير
يريد لحظك والمقلة من نظمي سحر في سحر سحر.
وقال مستعملا الحروف المهملة فقط:

كم شاهد حرم لمس الوسلد ** وما أردده سؤله والمراد
وابن حجة يقول متقاديا بالحروف المعجمة في أسفلها:

وقد أمنت وزال الخوف منحدقا ** نحو العدو ولم أحضر ولم أضمر
وعز الدين الموصلی قال في المستحيل بالانعكاس:-

لم يستحيل بانعكاس في سحيته ** مدن أخا طعم معط أخا ندم^(١٥)
(هـ) كثرة المقطوعات:-

- ٨- اختيار الألفاظ قبل المعنى في النشر: وذهب بعض العلماء على أن سبب الطغيان الصناعي في هذا العصر هو قلة ما لدى أدباء العصر من الأفكار والمعاني.
- ٩- قلت ملكة الابتكار الذي أُلجأ بالأدباء إلى انكباب على تأليف الموسوعات والمعاجم والتقليد بالسلف.

شيوخ المتون والشروح والحواشي. فالمتون توضع على غلط من الأيجاز والإيعاد عن الاختصار يصعب فهمه، والشروح هو تفسير يحمل المتون في شيء من الإسهاب. وأما الحواشي فمتشعبة المباحث، كثيرة الاستطراد والاستقلال من مسائل العلم إلى مسائل علوم أخرى^(١٨).

فهذه النقاط السابقة هي العوامل التي دعت بعض الكتاب إلى تسمية العصر التركي بعصر الانحطاط أو عصر الجمود في الأدب العربي.

الإنجازات الأدبية وعلماء العصر التركي:

لن يخلو زمان ولا مكان من مصلح ومفسد كما لا يكمن وجود شيء معيب من غير أن يكون له أوجه الحسن، فهذا سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً. بناء على ذلك، نورد بالإنجاز بعض إسهامات علماء هذا العصر في الأدب ثم نوازن بينها وبين العوامل المذكورة أعلاه قبل إصدار الحكم على الغث والسمين منها.

أولاً: الإسهامات النثرية:

عندما سقطت بغداد وأحرق التتار كثيراً من الكتب ودمروا كل شيء تدميراً، تملك العلماء شعور الديني دفعهم إلى العمل على إعادة ذلك التراث الذي أتلفته كوارث الغزو، وتحديد ذلك المجد الإسلامي الذي بني في دهور، فأخذوا يبذلون الجهد في التأليف والتصنيف لإصلاح ما أفسدته الأيام وإنشاء كتب جديدة في اللغة والدين والأدب وغيرها. وبالتالي كان النشر عندئذ على أربعة أنواع:-

(١) الكتابة الديوانية (٢) الرسائل الأدبية (٣) النشر العلمي (٤) والخطابة.

أما الكتابة الديوانية فموضوعها ما يصدر من السلاطين والحكام من الرسائل وقد أنشئ لها ديوان خاص عرف "بديوان الإنشاء" وعليه يقول حنا الفياخوري في كتابه.

.....تولي أمره خيرة الرجال أدبا وسياسة وثقافة. لأن مهمة صاحبه تطلب

حسن الرأي والمشورة، لدقة في العلاقات، والمعرفة بأمرجة النفوس

والاطلاع على أساليب البلاغة بتكيف الكلام بحسب مقتضى الحال

فيصادف القبول والرضى...^(١٩)

b13W▼ ↓<!ⁿ\$α! Ç

ومن أنبه كتاب الدواوين في هذا العهد، محيي الدين بن عبد الله الطاهر القاضي البصري

وابنه فتح الدين وتاج الدين بن الأثير وشهاب الدين محمود الحلبي، والقلقشندي صبح الأعشى.

وأما الرسائل الأدبية فتتناول الإخوانيات بأنواعها: من مراسلات بين الأصدقاء،

ومناظرات أدبية فهي التي غلب عليها الصنع اللفظي في أواخر العصر العثماني. ومن رجالها

لسان الدين بن الخطيب وشهاب الدين بن فضل الله العصري والقلقشندي وبدر الدين الحلبي

صاحب نسيم الصبا.

وأما النشر العلمي، فهو التصنيف أو التدوين الذي قام به علماء هذا العصر، وأكثرها في

العلوم اللسانية من نحو وصرف ولغة، وفي العلوم التاريخية والجغرافية، وفي العلوم الدينية. قل

الابتكار في العلوم اللسانية وكثر فيها التطويل والاختصار وفي العلوم التاريخية والجغرافية والرحاليف

ابتكار عجيب. وحول أسلوبهم يقول حنا الفاخوري أيضا:

فكان أسلوبهم أقرب إلى الطبع وأبعد عن التكلف لأن غايتهم العلمية لم تدع لهم مجالا

للسعي وراء التتميق اللفظي فلان كلامهم وسهل كما هي الحال عند ابن خلدون^(٢٠) وأشهر

المؤلفين في اللغة: شهاب الدين النويري وابن فضل الله العصري وبهاء الدين العاملي والقلقشندي

(ط) انتشار اللفاظ العامية والالفاظ الاجنبية في الشعر: ومن امثله ذلك قول البهاء زهير:-

بروحي من أسنيها بسني ** فتظنني النجاة بعين مقت
يرون بأني فد قلت لحنا ** وكيف وإنني لزهير وقتي
ولكن عادة ملكت فؤادي ** فلم ألحن إذا ما قلت سني^(١٧)

(ي) انتشار الأوزان الشيعية المولدة:- مثل "الموالي"، "والقوما"، "والزجل" "والدويب"
"والموشح" التي استساغتها آذان آل قلاوون وآل برقون
(يا) شيوع للمديح النبوي وظهور الشعر الصوفي.

مؤلفي تفسير الجلالين، زادت مؤلفاته على ثلاث مائة في التاريخ والدين والأدب واللغة منها
المزهر والأشياء والنظائر في النحو.

وفي العلوم التاريخية والبلدان والرحلات ظهر الأعلام أمثال أحمد بن خلكان صاحب
وفيات الأعيان وأبناء الزمان في ترجم العلماء والأدباء والملوك والأمراء وغيرهم والقزويني
صاحب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات والفلك والجغرافية وله أيضا آثار البلاد وأخبار
العباد في التاريخ. ومنهم أبو الغذاء صاحب المختصر في تاريخ البشر وابن بطوطة صاحب تحفة
النظار في غرائب الأمطار وعجائب الأسفار في رحلات، ثم ابن خلدون صاحب المقدمة وكتاب
العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.
وقد ترجم المقدمة إلى عدة لغات منها اللغة الإنجليزية. وهناك أعلام أخرى لا يسمح
ضيق نطاق البحث ذكرهم.

وفي العلوم الدينية: صنع ابن تيمية الذي صنف - كما قيل - خمس مائة كتاب، منها
رسالة الفرقان بين الحق والباطل والجميع بين العقل والنقل ومجموع الرسائل الكبرى وغيرها -
وبرع أيضا شمس الدين بن قيم الجوزي صاحب كتاب زاد المعاد في الحديث وكتاب فوائد
المشرق إلى علم القرآن وعلم البيان وكتاب القدر ومفتاح دار السعادة.
الكتابة الخطية:

وعلاوة على ذلك كله تطورت الكتابة الخطية العربية في هذا العصر على ما كانت عليه
منذ أن أبدع أبو الأسود الدؤلي وتلاميذه الشكل والنقطة فيه. لقد درج الخط في هذا العصر في
الطريق التي مهدها ابن مقلة وابن البواب وياقوت الملكي وغيرهم قبل أن أبدع في تحسينه حمد الله
الماسي إمام الخطاطين وجمال الدين، ودرويتين على والحافظ عثماني وهم كتاب التروك بالعثمانيين
وكان العالم يعترف لهم بالسبق^(٢١).

ثانيا: الإسهامات الشعرية:

تعددت موضوعات النثر في هذا العصر كما أسلفنا الذكر. أما الشعر فلم تقتصر
موضوعاته على ما اعتاده الأدباء قديما من مديح وفخر وغزل ورثاء وما شابهها، بل خرجت إلى

موضوعات أخرى أقرب إلى حياة الناس العادية الجارية، فقالوا في أحوال المجتمع ونقد بعض وجوه الغيب فيه. كما قالوا في وصف الحمامات والمساجد، وظهر في الشعر لون جديد من المديح رده كثير من شعراء العصر هو المديح النبوي وقد أبدع فيه البوصيري في قصيدته هج البردة، والهمزة، كما ظهر الشعراء الصوفية بتجارهم الوجدانية والتأملية وذلك إلى جانب وصف المعارك والانتصارات الكبرى.

ويمكن تقسم مذاهب الشعر في هذا العصر إلى ثلاثة مذاهب:

١- الذين أخذوا بأسباب الفصاحة وقوة التعبير ونهجوا نهج القدماء وتبعوا طريقتهم في الشعر مثل الأنثوري العراقي والطغرائي، وعمارة اليميني وابن المقرب الإحساني. ومن نماذج شعر هذا المذهب قول ابن المقرب الإحساني:

منا أعلا بالمرهفات القواضب * وسم العوالي والعتاق الشوارب
وضرب يزل الهام عن كل ماجد * على الهول مقدم كريم المناسيب
وليس ينال المجد من كان هم * طروق الأعالي واعتناق الحباب (٢٢)

فهذه الشعر قريب في روحه من شعر المتنبي، وشبيه به في قوة البناء والفصاحة.

٢- مذهب الذين مالوا إلى طريق العصر في الإكثار من البديع والميل إلى السهولة في أسلوب الشعر واستخدام الألفاظ الجارية العامة كصفي الدين الحلبي والبهاء زهير، وابن سناء الملك، والحسن الجزار، وشهاب الدين محمود وابن نباتة المصري. نكتفي بما ذكرنا سابقاً نموذجاً لشعر هذا المذهب. فشعر البهاء زهير خير مثال لذلك (٢٣).

٣- مذهب الذين جمعوا بين الطريقتين كابن نباتة، وابن الفارض، والبوصيري وابن النقيب وابن الساعاتي وابن الوردي القائل:

لا تقل أصلي وفصلي أبدا * إنما أصل الفتي ما قد حصل
قد يسود المرء من دون أب * وبحسن السبك قد ينفي الدغل
إنما الورد من الشوك وما * ينبت النرجس إلا من بصل
قيمة الإنسان ما يحسنه * أكثر الإنسان منه أو أقل

بين تبذير وبخل رتبة ** وكلا هذين إن زاد قتل

فما أشبه هذا الشعر بشعر زهير بن أبي سلمى في الحكمة والسهولة.

يقول صاحب التعريف في الأدب العربي، رحبف حوري، تعليقا على هذه القصيدة: "إن لامية ابن الوردي تعد من أفضل الشعر الحكمي التعليمي الذي تناهي إلينا من أعصر الانحطاط" (٢٤). فهذه لدلالة واضحة على جودة هذا الشعر.

المقارنة بين عوامل الانحطاط والإسهامات الأدبية في هذا العصر:

فإذا أمعنا النظر فيما احتج به العلماء على تسمية هذا العصر بعصر الانحطاط وقارناه بما سجلوا لنا من إسهامات أدبية في العصر نرى:

١- أننا إذا أمعنا النظر فيما أخلفه لنا علماء العصر التركي من الأعمال اتضح لنا جلياً أن دعوى قلة العمل الأدبي في العصر دعوى واهية، ونؤيد ذلك بما قاله بكري عن النثر بعد دراسة إنجازات العصر:

لا نبالغ إذا قلنا: إن المؤلفات، التي صدرت في العصر المملوكي - وهو أقل من ثلاثمائة عام - بلغة عشرات الآلاف، وحسبنا دليلاً أن بعض العلماء عرف عنه وحده ألف مئات من الكتاب كالسيوطي، وابن تيمية (٢٥).

وفي الشعر قال أيضاً:

"تنجلي في عدد الشعراء في كل عصر. ذلك نهم في العصور الأولى من الجاهلية إلى الحقبة الثالثة من العصر العباسي كانوا محدودى العدد، يمكن أن يحضروا ويعرفوا. أما شعراء الحقبة الرابعة من الحكم العباسي ونعي بها زمن بها زمن حكم السلاجقة الفاطميين والأيوبيين - وكذلك العصر المملوكي والعثماني، فإنهم من الكثرة بحيث يعسر على باحث أن يحصيهم عدداً (٢٦). واعتماده في ذلك "أخريدة القصر" للأصفهاني و "حزانة الأدب" لابن حجة الحمودى و "خلاصة الأثر" للمبجي و "سلك الدرر" لمحمد المراد.

٢- عدم تشجيع الملوك للعلماء: إضافة إلى ما ذكرناه عن الحياة الفكرية قد وجدنا في كتب الأدب المختلفة المكتوبة عن هذا العصر ما يسجل لنا تشجيع الحكام للعلم والعلماء ومن ذلك النص التالي:

"وشجع الحكام العلم والعلماء والطلاب، فكانت تجرى عليهم الرواتب، وتقدم الهدايا في المناسبات المختلفة ويدعي كبار العلماء إلى قصور الملوك والسلاطين للتكريم أو المستورة. (٢٨)

وقال أحمد الأسكندري

وكان السلاطين يشجعون العلماء على التأليف بما كانوا يبذلون من المال والمناصب فامتلات خزائن الكتب في عهدهم بشمرات العقول ونتائج الإفهام" (٢٨)

فإن كان تشجيع الملوك للأدباء في العصور السالفة عاملاً لتطور الأدب إذن لم ينحط الأدب في العصر التركي.

٣- انقطاع التكسب بالشعر: لا شك في أن التكسب بالشعر قد انقطاع في هذا العصر وهذا لا يمكن أن يكون سبباً لانحطاط أدب أية أمة لأن التكسب بالشعر ليس بضروري للشاعرية. فالشعر نابع عن الشعور والوجدان وهبة من الله لمن يشاء، فهناك عديد من الشعراء في كل العصور التي مر عليها الأدب العربي لم يكتسبوا بالشعر ومع ذلك وبرعوا فيه ونبغوا مثل عنتره بن شداد في الجاهلي والإمام الشافعي في عصر صدر الإسلام ومعروف الرصافي في العصر الحديث وأمثالهم وغيرهم كثيرون في بلادنا نيجيريا حيث لا ينظم الشعراء للتكسب ومع ذلك تفوقوا فيها. فإذا أجاد شعراء العصر التركي فإنما أجادوا لأنهم أحبوا الشعر ورأوا فيه فناً رفيعاً حنت إليه نفوسهم، ومالت قلوبهم، فقال كثير منهم لا للمال وللتكسب، ولكن لأن الفن تملكهم وأخذوا بزمام نفوسهم، فلا بد لهم

من القول ولا يد لهم من الإجادة. وإنما تزدهم الفنون إذا صدرت من نازعة صادقة مصدرها حب الفن، لا حب الشهرة ولا حب المال.

٤- امتزاج اللغة الأجنبية بالعربية: إن تسرب الألفاظ الأعجمية في اللغة العربية غير مقصور على هذا العصر بل ملحوظا في جميع العصور الأدبية وهذا أمر لا مفر منه إذا امتزج أمة بأمة أخرى ولا يؤدي ذلك إلى انحطاط الأدب. فكلمة "فردوس"، موجودة في القرآن وهي كلمة غير عربية وأمثلة ذلك في جميع لغات العالم كثير. فكثير ما نرى في الكتب العربية الحديثة حتى في القصائد ألفاظا غير عربية خصوصا الألفاظ الإنجليزية مثل "أوتوماتيكية" "إستراتيجية" "دبلوماسية" "كلاسيكية" وغيرها ولا يضر ذلك العربية في شيء بل يعد ذلك تحاوبا من العربية لمعطيات العصر وتماشيا منها مع روح العصر فمن العجب أن يعد ذلك من عوامل انحطاط الأدب في عصر.

٥- كثرة استعمال اللغة العامية: هذه الظاهرة كما نعلم شائعة اليوم في الدول العربية من مصر والمملكة العربية السعودية وغيرها حيث شاعت العامية حتى في الجامعات ومع ذلك لا يضر أدب هذا العصر بشيء فلكل من الفصحى والعامية مجاهل ولا تضر أحدهما بالآخر.

ومن قاس ما لم يراه بما يرى ** أراه ما يدنوا إليه ما نأى (٢٩).

٦- ظهور اللحن: نلحق بما ذكرناه أعلاه أن وجود اللحن في بعض مكتوبات هذا العصر غير كاف حجة لدعوى انحطاط الأدب فيه. ففي عصر الرسول لحن رجل بحضرته وقال:-

"أرشدوا أحاكم فإنه قد ضل" وفي عهد الخلفاء الراشدين وردت أمثلة من اللحن حتى في قراءة القرآن. ولحن المتنبي في العصر العباسي المبني، حيث قال:

فإن يك بعض الناس سيفاً للدولة ** ففي الناس يوقات لها وطبول (٣٠).

ولولا وجود اللحن في صدر الإسلام لما أسرع أبو الأسود الدؤلي إلى وضع علم النحو بأمر علي بن أبي طالب.

فإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على أنه لا يخلو عصر من القوي والضعيف ولا يكون العلماء والأدباء سواء في التفكير والتعبير وأنه لا بد أن يكون في كل عصر محل هبوط وإبداع وازدهار.

٧- **اقتصار الخطب على خطب الجمع والأعياد:** لا شك أن مجال الخطابة في هذا العصر ضيق، ولكن بناء على ما أسلفنا ذكره أن لكل عصر محل هبوط وازدهار، فإذا نظرنا إلى العصور السالفة نظرة تفحص نجد أن أكثر ما تركه لنا العصور السالفة شعرا لا نثرا ولم يكن هناك غرو في تفوق نسبة الشعر نسبة النثر في ذلك الأوان، فلا غرو إذن إذا قلت الخطابة بالنسبة إلى الكناية والشعر في هذا العصر فلكل عصر خصائصه في هذا المضمار.

٨- **الاهتمام بالصناعة البديعية:** فإنه لا ريب في أن أكثر الأدباء في هذا العصر أفرطوا في استعمال الصور البديعية في التلاعب بالألفاظ، وهذا لا ينافي أن بعضهم أحسنوا استعمالها وأن استعمال البديعات طبيعي في اللغة العربية وهي مما ميز هذه اللغة من لغات العالم الأخرى خصوصا السجع وهذا البحث لا يرى الفرق في كثرة استعمال السجع في النثر في مكتوبات هذا العصر وبين استعماله في النثر القديم خصوصا في العصر الجاهلي الذي قيل إن العرب كانوا يتكلمون بالطبيعة والسليقة وإضافة إلى ذلك كان استعمال المزيّنات اللفظية بالتكلف - كما قيل - أبدعه بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبو تمام ^(٣١) وذلك في العصر الذهبي للأدب العربي، ولم يقل أحد إن الأدب قد انحط في ذلك الحين بسبب المحسنات اللفظية فكيف أصبح استعمالها عاملا لاخطا في الأدب في هذا العصر؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، وقبل وضع علم البلاغة والنحو والصرف كانت ترد عفوا في الشعر والنثر ثم أصبحت بعد الوضع ترد تعمدًا وبدأ يبنى النقاد حكم الجودة في العمل الأدبي على حسن استعمال قواعد هذه العلوم. ففي العصر العباسي حين وضع علم المعاني وعلم البيان أضحي النقد يخضع لحركاتها وتسير في ركابها ^(٣٢) ولم يعد ذلك عاملا لخطا، فما العيب إذا اختار العصر التركي البديعيات، التي تطورت في العصر تطورا كاملا عجيبا، معيار جودة العمل الأدبي؟ أليست البديعيات نوعا من

البلاغة؟ وليس بضروري أن يكون لعمل في معني تفهم، المهم أن يؤدي أدبي فائدة للبشر. فمثال ذلك ما يسمى "طحالب الصبايا" وهو فن أبدعه زعيم الرسامين المعاصرين السرباليين، ليس له معني يفهم إلا أنه مجرد وهم ورده فصوره ثم صيره فنا تناقلت الصحف والمجلات حديث النقاد عنه، ونقلته من لغة إلى لغة أخرى، ولم يبق إنسان محب للفن الأصيل إلا سمع أو قرأ شيئا ماعن "طحالب الصبايا" (٣٣)

فمن نظر نظرة عميقة في الأشكال الشعرية المستحدثة في هذا العصر، من تاريخ شعري وألغاز وأحاجي وتشجير وذوات قواف وشعر هندسي وطرده وعكس وغير ذلك من الابتكارات البديعية، يقدر جهود هؤلاء الشعراء بدلا من أن يرمي عصرهم بالجمود. وعلاوة على هذا فهذه البديعيات التي أكملها لنا هذا، العصر هي التي مهدت لنا طريق استمتاع بموسيقى الشعر العربي.

٩- كان أدباء هذا العصر يقتفون آثار القدماء في الغزل والمدح والمهجاء والرثاء والفخر والحكمة والزهد والخمرة ولكنهم ابتكروا ألوانا جديدة من هذه الأغراض فالغزل والخمرة على سبيل المثال، كانا يعتمدان على الحب الإلهي والسكران والتفاني في حبة مثال ذلك قول ابن عربي:

مرضى من مريضة-الأحفان ** عللاني بذكرها عللاني
هفت الورق بالرياض وناحت ** شجو هذا الحمام مما شجاني
بأبي طفلة لعبوب تهادي ** من بتات الحدود بين الفرائي
طلعت في العيان شمسا فلما ** أفلت أشرقت بأفق جناني.

نرى في هذه القطعة ألفاظ الغزلين ولكن ابن عربي فسرنا لنا كما يلي:

"المرضى: الميل، بقول: لما مالت عيون الخضره

المطلوبة للعارفين من جانب الحق سبحانه بالرحمة

والتلطف إلينا أمالت قلبي بالتعشق إليها... الخ (٣٤)

وفي الرثاء، نشأ رثاء الممالك الزائلة وبكاء المدن المنهارة وإثارة الهمم النائمة، وتصوير الغد الكئيب الذي يحمل معه الموت والدمار وذهب البكرى إلى أن هذا اللون من الشعر يمتاز بصدق

العاطفة، والابتعاد عن التكلف والافتعال وبلاستقلال عن كل تبار. قال عمارة اليميني يرثي
الدولة الفاطمية:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل ** وجيده بعد حسن الحلي بالعطل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل* ** تسقيث مهلا، أما تمشى على مهل^(٣٥)
وفي الوصف حسبنا ما قاله البكري بعد دراسة الفن في شعر أدباء العصر:
لم يخل فن الوصف في هذا العصر من الابتكار والتجديد، رغم أن أبناءه
لم يقطعوا أسباب اتصالهم بالوصف القديم التقليدي، وقد بدت في شعر
أبناء هذه الفترة ملامح ابتداء، ولم تقتصر على هذا الفن وحده، وإنما
كانت موزعة على الفنون الأخرى^(٣٦).

وفي المدح أصبح مدح الرسول فنا جديدا يقتدي بأعلامها أدباء العصر الحديث حتى أمير
شعرائهم أحمد شوقي.

ففي النثر ظهر فن الرحالة الذي قام علماء العصر بالرحلات والاتصال بالأجناس البشرية
الجديدة واكتشفوا العجائب والغرائب وسجلوها للأجيال القادمة كما بزغت الموسوعات
والقواميس والمصنفات الكثيرة إلى حيز الوجود.

١٠- جمع القواميس والموسوعات: فهذا البحث يرى أن كثرة القواميس والموسوعات في هذا
العصر بمثابة استخراج علم البلاغة والنحو والصرف والعروض وغيرها من القرآن وكلام
العرب، ويعني هذا أن بلاغة العرب وفصاحتهم سبقت علم البلاغة والنحو والصرف
كما كانوا ينظمون الشعر بالطبيعة قبل وضع الخليل للعروض، فخوف الضياع والإلتباس
الذين حملا السلف على وضع هذه العلوم هما الدافع الحقيقي لعلماء العصر إلى وضع
القواميس والموسوعات. ولولا جهودهم هذه الفعالة لما وجدت النهضة الحديثة أسسا
تبنى عليها رقيها.

١١- علاوة على ذلك كله، عرف العرب الطباعة أول مرة في هذا العصر، وذلك في سنة
١١١٨هـ/١٧٠٦م. في حلب وبدأت صناعة الورق أيضا في العصر^(٣٧). وإضافة إلى

العاطفة، والابتعاد عن التكلف والافتعال وبلاستقلال عن كل تبار. قال عمارة اليمني يرثي
الدولة الفاطمية:

رमित يا دهر كف المجد بالشلل ** وجيده بعد حسن الحلبي بالعطل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل ** تسقيث مهلا، أما تمشى على مهل^(٣٥)
وفي الوصف حسبنا ما قاله البكري بعد دراسة الفن في شعر أدباء العصر:
لم يخل فن الوصف في هذا العصر من الابتكار والتجديد، رغم أن أبناءه
لم يقطعوا أسباب اتصالهم بالوصف القديم التقليدي، وقد بدت في شعر
أبناء هذه الفترة ملامح ابتداء، ولم تقتصر على هذا الفن وحده، وإنما
كانت موزعة على الفنون الأخرى^(٣٦).

وفي المدح أصبح مدح الرسول فنا جديدا يقتدي بأعلامها أدباء العصر الحديث حتى أمير
شعرائهم أحمد شوقي.

ففي النثر ظهر فن الرحالة الذي قام علماء العصر بالرحلات والاتصال بالأجناس البشرية
الجديدة واكتشفوا العجائب والغرائب وسجلوها للأجيال القادمة كما بزغت الموسوعات
والقواميس والمصنفات الكثيرة إلى حيز الوجود.

١٠- جمع القواميس والموسوعات: فهذا البحث يرى أن كثرة القواميس والموسوعات في هذا
العصر بمثابة استخراج علم البلاغة والنحو والصرف والعروض وغيرها من القرآن وكلام
العرب، ويعني هذا أن بلاغة العرب وفصاحتهم سبقت علم البلاغة والنحو والصرف
كما كانوا ينظمون الشعر بالطبيعة قبل وضع الخليل للعروض، فخوف الضياع والإلتباس
الذين حملوا السلف على وضع هذه العلوم هما الدافع الحقيقي لعلماء العصر إلى وضع
القواميس والموسوعات. ولولا جهودهم هذه الفعالة لما وجدت النهضة الحديثة أسسا
تبني عليها رقيها.

١١- علاوة على ذلك كله، عرف العرب الطباعة أول مرة في هذا العصر، وذلك في سنة
١١١٨هـ/١٧٠٦م. في حلب وبدأت صناعة الورق أيضا في العصر^(٣٧). وإضافة إلى

ما أسبقنا ذكره أنشئ دمشق وحلب مالا تقل عن خمسة وأربعين مدرسة كل مدينة عدا ما في المساجد والكتاتيب ولا سيما مصر حيث كانت جامعة الأزهر الشريف. وإضافة إلى ذلك، في كل مدن إسلامية مكتبات زاخرة بالمخطوطات والمنشورات لا تُعد ولا تُحصى. وإذا كانت المؤسسات المذكورة أعلاه عوامل نهضة في العصر الحديث فلن تكون عوامل انحطاط في العصر التركي.

الخاتمة

خلال المقارنة التي قمنا بها فيما سبق بين العوامل الانحطاط التي ذكرها العلماء بالنسبة للعصر التركي وبين الإسهامات الأدبية التي سجلوها لنا، مع ما جئنا به من الحجج، نستطيع أن نقول بأن الأدب لم ينحط في هذا العصر، ولم تجرد الحركات الأدبية فيه. فالاسم المناسب للعصر هو "العصر التركي" أو العصر المملوكي والعثماني لأن الحوادث السياسية هي المعيار المستعمل لتسمية العصرين، الأموي والعباسي عند العرب.

فالعصر الذي وجد فيه ابن خلدون صاحب المقدمة والسيوطي والقلقشندي صاحب صبح العشي، وابن بطوطة والبوصيري وابن الوردي وغيرهم لن يعد عصر انحطاط وجمود. فعلى النقاد قبل التحكيم على أي عمل أدبي أو عصر أدبي أ، يعرفوا أن البيئة التي عاشوا فيها تختلف والدواعي إلى قول العمل الأدبي تختلف كذلك من عصر إلى عصر ولكل عصر وجيل وبيئة فهما ومثلا تلائم الزمن الذي وجدت فيه. فإذا حكموا بدون النظر إلى هذه الظاهرة يكونون قضاة غير عادلين ونقادا غير منصفين - كما كان الأمر في تسمية هذا العصر بعصر الانحطاط والجمود.

المراجع والمصادر

- ١- حنا الفخوري: تاريخ الأدب العربي، الطبعة الثامنة، المكتبة البولسية بيروت ص ٨٥٩.
- ٢- لإدارة العامة للمناهج التطوير التربوي: الأدب العربي، المقرر الرابع، الطبعة الثامنة، المملكة العربية السعودية ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م ١٣٢.
- ٣- بكري شيخ أمين: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، الطبعة الثامنة، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ص ٣٨.
- ٤- حنا الفاخوري: المرجع السابق ص ٨٥٩.
- ٥- المرجع نفسه ص ٨٦٠.
- ٦- الإدارة العامة للمناهج التطوير التربوي المرجع السابق ص ١٣٤.
- ٧- المرجع نفسه ص ١٣٧.
- ٨- المرجع نفسه ص ١٣٧.
- ٩- أحمد الهاشمي: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، الجزء الأول، مكتبة المعارف. غير مؤرخ ص ٢٠٣.
- ١٠- المرجع نفسه ص ٢٠٣.
- ١١- الإدارة العامة للمناهج التطوير التربوي: المرجع السابق ص ١٤٥.
- ١٢- المرجع نفسه.
- ١٣- أحمد الأسكندري وغيره: الفصل في تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية، الجزء الثاني، وزارة المعارف العمومية مصر، غير مؤرخ ص ١٦٤.
- ١٤- المرجع نفسه ص ١٦٤.
- ١٥- حنا الفخوري: المرجع السابق ص ٨٦٣.
- ١٦- عبد الرزاق ديمرعي أبوبكر: مذكرة أعدها لطلاب مرحلة الماجستير (قسم اللغة العربية) بجامعة إلورن ١٩٩٧.
- ١٧- أحمد الأسكندري وغيره: المرجع السابق ص ١٦٦.

نتائس
مجلة أكاديمية سنوية
لمنظمة معلمي الدراسات العربية
والإسلامية بنيجيريا

طبع بمطبعة شبأوتوما
شارع أررومي، رقم: ٧٢
إيجو أودي، نيجيريا